ظاهرة التبادل في العربية
قراءة لسانيّة في كتاب سيبويه

أ.م.د. رجاء عجيل الحسناوي

ملخص البحث:
لحظ سيبويه- في ضوء نظام العربية- مشابهة الكلام العربي بعضه بعضاً بإدراك تأتى لنا من عبارته"ومن كلامهم أنْ يشبهوا الشيء بالشيء وإنْ لم يكن مثله في جميع الاشياء". فقد ترددت هذه العبارة في أجزاء كتابه الأربعة مفسّراً بها الكلام في ضوء الواقع الاستعمالي ،عبر منهجية لمعالجة التقاطع الحاصل بين كلام العرب والمعايير النحوية، مما أفرز طرقاً مزدوجة لأنماط الكلام، وهي مرحلة عُليا في السلم اللغوي تفضي إلى خط مهم من خطوط نظرية الأصول اللغوية التي -كما يُعتقد- يقوم عليها التفكير اللغوي العربي.ومن فضول القول إنّ وضوح تلك الظاهرة يرجع إلى استقرار فهمها ونضجها عند واصفها، فجاء الكلام عن مواضعها دقيقاً ،فهناك قوانين نحوية ودلالية تعمل -عند مراعاتها- على توليد المكونات البديلة .
ويحاول هذا البحث أنْ يقدّم صورة للفكر البنائي الدلالي الذي اتسم به تحليل سيبويه لكلام العرب في ظلّ هذه الظاهرة عن طريق النظر في علاقات الترابط بين المكونين المتبادلين باستخلاص معاييرمقبولة عقليّاً ،مضبوطةً استعمالاً.ولعلّ في حضور تلك المدارسة السيبويهية في الكتاب مايُنبيء عن سرّ من أسرارتميّز صاحبه في استيعابه أصول النحو العربي وفروعه،وهي فكرة نواة للتبادل جرى تقسيم البحث -عبرها - على ثلاثة مباحث يسبقها مهاد نبيّن فيه تصوّر سيبويه لهذه الظاهرة عن طريق نصوصه،وبيان أسس ذلك التصوّر.
-أمّا المبحث الأول:فقد وسم بـ (التبادل من المصطلح إلى الظاهرة).فيه ما تفرضه المنهجية العلمية من تحديد للمصطلح بإمكانية تسمح بإعطاء وصف أكثر دقة في نظام لغوي واحد.
-أمّا المبحث الثاني:فقد تناول المفاهيم المادية(المستوى المعجمي في إيثار التبادل)وهو مستوى يقوم على محورالاختيار.
-امّا المبحث الثالث: فقد تناول المفاهيم العلائقية (المستوى النحوي) ويقوم هذا المستوى على محور التوزيع.
وتكمن أهمية هذه الظاهرة في أنّها تعكس المنهج التفسيري السيبويهي الذي يعلّلها على وفق مقاصد كلام العرب بالكشف عن التحولات البنائية، والوظائف النحوية والمعاني المرادة من كلّ ذلك بما ينبيء عن حكمة العربية في صيرورة بدائل بعد أنْ لم تكن، ووفاقاً لذلك أرتأينا وجوب دراسةهذه الظاهرة في كتاب سيبويه.

مهاد

انّ الإجماع منعقد على أنّ محاولة دراسة نصوص سيبويه وتفسيرها ،هي محاولة محفوفة بالمخاطر لأسباب عدة، إلّا أنّ تخفيف هذا العبء يكمن في محاولات تناولت عدة قضايا بارزة دراسة وتحليلاً عبر وجهات نظر متباينة، وقد احتلّ مفهوم الخطاب موقعاً محورياً في جميع البحوث والدراسات التي تندرج في مجال تحليل النصوص. ولمّا كانت كلّ عملية خطابية تستدعي عناصر عديدة ،تتمثّل في المتخاطبين وسياق الخطاب ومقاصده، فإنّ خطاب العقل في كتاب سيبويه قد ارتبط بالمكاسب ، وهو التأثير اللغوي بالعمل أو الترك [١] ، مرتكزاً في ذلك على محورين:

الأول: المحور الدلالي بما يحتويه من مظاهر ترابط وانسجام بين مؤلفات البنية الكلية.

والآخر:المحورالتداولي ويضمّ السياق وتداوليات الخطاب.وهذان المحوران يُبنيان بدورهماعلى أساس لغوي من منطلق انّ الخطاب في جوهره كلام يتحقق عبر وسيلةالتواصل(اللغة)

ومن هنا فإنّ هذه المقدمة تعمل على طرح سؤال مفاده، ما الذي نقصده بظاهرة التبادل في فرضية تحتاج إلى البرهنة على وجودها؟

ورد في أحد تعاريف النحو أنّه ((صناعة علمية ينظر بها أصحابها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم لتعرف النسبة بين صيغة النظم وصورة المعنى فيتوَصّل بإحداهما الى الأخرى))[٢] . وهذا التعريف يمكّننا من التحدث عمّا سمّاه (ديك)[٣]، بالطاقات الأساسية التي تؤهل المتكلم لإقامة تواصل لغوي عبرها سواء أكانت ادراكية، أم ابستمولوجية، أم اجتماعية أم غير ذلك، إذ تتفاعل هذه الطاقات في قدرة المتكلم لتنتج قدرة تواصلية يفرضها الاستعمال ،وإزاء إنشاء قيمة تواصلية بوضع أحد العناصر مكان الآخر ،جعلنا من كتاب سيبويه مناراً لنا في قراءة ظاهرة التبادل في العربية لما امتلكه صاحبه من وعي في عرض القضايا النحوية والاستدلال عليها. منطلقين من أساس أنّ التبادل هو علاقة بين مكوّنين تسمح لثانيهما أنْ ينشّط المعلومات المشتركة بينه وبين الأول [٤].

وعلى وفق ما تقدم فقد خضعتْ ظاهرة التبادل في كلام العرب في مدونة سيبويه إلى ضوابط هي:

١- وجود سابق للمكون المبدل عنه.

٢- وجود المكون البديل.

٣- وجود العلاقة أو الشبه الواقع بين الصيغ والانظمة .

انّنا بتقديمنا هذه القراءة التي تبحث في أسس تداول هذه الظاهرة نسعى إلى تناولها عبر نظام الفكر الذي وُلِدت فيه من أجل اكتشاف الكيفية التي تشكلت بها المعرفة النحوية، حينما يجعلنا أبو بشر مدركين لوجود جانبين لهذه الظاهرة أحدهما خفي ملموس والآخر متجسد في الصياغة اللغوية ويكون المعنى مسؤولا عن تقديم النموذج المعين للمثال المحتمل.فالبدائل ههنا أوجه نظمية تتناغم مع المواقف الاجتماعية والتداولية ،فتكون ضمن بوتقة دلالية موحدة بارتكاز على عاملين نشاط التركيب وفاعلية السياق.

المبحث الاول
التبادل من المصطلح إلى الظاهرة

إنّ درْس المصطلح وتحديد ميدانه الذي يدور فيه البحث هما أولى خطوات البحث العلمي، وبما أنّ ميدان البحث ههنا قد حُدّد بالجانب التركيبي ،فإنّ ما يدخل في معنى البدل له مصطلحات عديدة في كتاب سيبويه منها ما هو مباشر كلفظ البدل ؛ فكما ورد في العين البدل: ((خلفٌ في الشيء والتبديل التغيير)) [٥]. فقد جاء في كتاب سيبويه في المصادر التي نابت عن أفعالها نحو (سقياً ورُعياً) **قوله:((وانّما اختزل الفعل ههنا ؛لأنّهم جعلوه بدلا من اللفظ بالفعل كما جُعل (الحذر) بدلا من (احذر) كذلك هذا كأنّه بدلٌ من سقاك الله ،ورعاك))**[٦] .

فلم يطلق سيبويه عليه لفظ (نائب) بل كرّر لفظ البدل، فإضمار الفعل ههنا لازم ؛لأنّ المصدر بدل من اللفظ بالفعل، فذكْره جمعٌ بين البدل والمبدل منه، وهذا لا يجوز في هذا الموضع[٧]. ويذكر زعْمَ ((**يونس أنّ العرب تقول: إنّ بدلك زيداً. أي: إنّ مكانك زيداً، والدليل على هذا قول العرب: هذا لك بدل هذا. أي :هذا لك مكان هذا. وإنْ جعلت البدل بمنزلة البديل قلت: إنّ بدلك زيدٌ. أي :إنّ بديلك زيدٌ))**[٨].

إنّ التعامل مع مدونة سيبويه يتيح لنا أنْ نقرأ نصوصه قراءة تكفل لنا إعطاء رؤية يكون الإدراك قد أسس لها ولم تقف عند اعتابه فحسب، فقد يجد المستطلع لكتابه تجوزاً كبيراً في استعماله المصطلحات الدالة على هذه الظاهرة على وفق رؤية من جانبها اللغوي بوصفه معطى مباشراً لجانبها الاصطلاحي في إرادة منه على ما يبدو لتقريب البعيد عن المدارك فهذا ((**من عادة أهل العربية، ولهم أشياء كثيرة تحمل على المسامحة ، ولكنّهم يفعلون هذا ؛لأنّ أغراضهم مفهومة**))[٩].

ولمّا كان استعمال الاصطلاحات يعدّ دليلا على نضج أيّ نظرية وتكاملها ؛لأنّها المفاتيح التي يمكن عبرها إدراك أبعاد النظرية ووصل خطوطها بالكشف عن ظواهرها ،فقد وردت مفاتيح اصطلاحية تدلّ على هذه الظاهرة في نظرية سيبويه النحوية في كتابه مثل:

١- الاستغناء :يقول سيبويه عن حذف الفعل في نحو (أقائماً وقد قعد الناس و أقاعداً وقد سار الركب)**: ((وذلك أنّه رأى رجلاً في حال قيام أو حال قعود، فأراد أن يُنبّهه، فكأنّه لفظ بقوله: أتقوم قائماً وأتقعد قاعداً، ولكنّه حذف استغناءً بما يرى من الحال))**[١٠] . فاستُغني عن الفعل بـ(قائماً وقاعداً)بما يُرى من الحال. فهذه تغيرات يفرضها مقام التواصل حينما يكون المعنى إطار عام ،ومراد المتكلم إطار خاص.

٢- تقوم مقام: يعرض سيبويه من ناحية التركيب لأسماء الأفعال في أنّها تستدعي الفاعل كما الفعل ؛ لكنّه مضمرٌ دائماً، معللاً ذلك بقوله:((**واعلم أنّ هذه الحروف التي هي اسماء للفعل لا تظهر فيها علامة المضمر ، وذلك أنّها اسماء وليست على الأمثلة التي أُخِذتْ من الفعل الحادث فيما مضى وفيما يُستقبل ، وفي يومك ؛ولكنّ المأمور والمنهي مضمران في النية، وإنّما كان أصل هذا في الأمر والنهي وكانا أولى به؛ لأنّهما لا يكونان إلّا بفعل٠٠٠وإنّما سُمّي بها الأمر والنهي فعملتْ عملهما ولم تجاوز فهي تقوم مقام فعلهما))**[١١].فهي أسماء لم تبنَ بناء الأفعال ؛لكنّها في الدلالة الزمنية شابهت فعل الأمر في دلالته على ما لم يقع مع ملاحظة مشابهتها التركيبية في إضمار الفاعل بعدها ،لذلك قامت مقامه.

٣- ما يجري مجرى: يقول في باب ما جرى من الأسماء التي لم تُؤخذْ من الفعل مجرى الأسماء التي أخذت من الفعل ((**ولو مثّلتَ ما نصبتَ عليه الأعيار والأعور في البدل من اللفظ لقلت: أتعّيرون مرة وأتعورون إذا أوضحتَ معناه ؛لأنّك إنّما تجريه مجرى ما له فعل من لفظه ،وقد يجري مجرى الفعل ويعمل عمله؛ ولكنّه كان أحسن أنْ توضّحه بما يُتكلّم به إذا كان لا يُغيّر معنى الحديث))**[١٢] .

٤- المنزلة[١٣]:

أورد سيبويه في ((باب ما ينتصب فيه المصدر كان فيه الألف واللام أو لم يكن فيه على إضمار الفعل
المتروك إظهاره؛ لأنّه يصير في الإخبار والاستفهام بدلاً من اللفظ بالفعل كما كان الحذر بدلاً من احذر في الأمر)) ما نصه :

((وقال الراجز وهو العجاج:

أطرباً وأنت قنّسري [١٤]

وإنّما أراد :أتطرب .أي :أنت في حال طرب، ولم يُرِدْ أنْ يُخبر عمّا مضى أو يُستقبل ومن ذلك قول بعض العرب : أغدّةً كغدّة البعير، وموتاً في بيت سلولية؛ كأنّه أراد أأغدّ غدّة كغدّة البعير وأموتُ موتاً في بيت سلولية وهو بمنزلة أطرباً وتفسيره كتفسيره))[١٥].

فالتفسير ههنا أنّه جرى إبدال الفعل بالمصدر لدلالة المصدر عليه فهو بمنزلته ويذكر في موضع آخر نصاً فريداً إذ يقول:((**وقد تقع نفعل في موضع فعلنا في بعض المواضع ومثل ذلك قوله لرجل من بني سلول مُوَلَّد[١٦]**

ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني فمضيتُ ثُمّت قلتُ لا يعنيني

واعلم أنّ أسير بمنزلة سرت اذا أردت بـ(أسير) معنى سرت))[١٧].

إنّ هذا الفهم المعتمد على المنحى الوظيفي يُفسّره السيرافي بقوله: ((إنّما يستعمل ذلك إذا كان الفاعل قد عُرِف منه ذلك الفعل خَلقاً وطبعاً، ولا يُنكر فيه في المضي والاستقبال، ولا يكون لفعلٍ فعله مرةً من الدهر))[١٨].

لعلّنا ندرك بهذا أنّ تعددية الاصطلاح عند سيبويه ،هي تأكيد تعددية النحو يكفل بيان ذلك ما عكسته نصوصه في أنّ النحو هو معرفةٌ بقواعد ينبغي اتباعها في اللغة السليمة، وهو أيضاً فن الكلام الصحيح حينما يتعلق الأمر بالمتكلمين على وفق قواعد الاستعمال والحياة الاجتماعية، وأنّ الجمع بينهما يمكّن من تحصيل معنى متكامل للنحو ،وهو العلم بكيفية التصرف في الكلام ، فقد أسس سيبويه بحدّة ذهنه وقوة خاطره لمعرفة ما يُوجِب الحكم بعلاقة ما بين أطراف الكلام بما تمدّه تلك الأطراف من جسور معنى على وجه يقتضيه العقل ، وإذا كان ذاك كذلك ، فَإنّ المعايير المعتمدة في ظاهرة التبادل ههنا ترتكن إلى المقام بوصفه وضعية تضمّ زمان القول ومكانه وهوية المتخاطبين، وكلّ ما نحتاج إلى معرفته لفهم الكلام حينما تعبّر بعض العناصر اللغوية عن المعنى نفسه، فتكون المكونات بديلة عن مكونات أُخر، وبدلاً من وجود حدود فاصلة تتحول العلاقة بينها إلى علاقة تضافر وتشابك دلالي.

وعلى نحو من الدقة سنحاول تحديد ظاهرة التبادل منوّهين بدءا بتحديد هذا المفهوم بأنّه: (رفع الشيء ووضع غيره مكانه) باعتماد تغيير المكون اللغوي مع بقاء عينه، يؤنسنا بذلك قول صاحب الكليات أنّ التبديل ((قد يكون عبارة عن تغيير الشيء مع بقاء عينه يُقال: بدّلت الحلقة خاتماً))[١٩] ، أي أنّ المشابهة تُؤهل إحلال الشيء مكان شيء آخر وهذا مجاله الاستعمال لا التقدير.

وفي محاولة لتقديم صورة للفكر السيبويهي الذي اتسم به تحليله كلام العرب عبر تلك الظاهرة، لابدّ من أنْ نُبرز تعريفاً لها من منطلق إدراكنا أبعادها ، وعليه فالتبادل ((هو وقوع اللفظ موقعاً ليس له بجهة الأصالة فيقوم مقام الأصل لما هو بصدده من موقع لغوي سواء أكان الموقع على المستوى الدلالي، أم الوظيفي، أم الإعرابي)) .ففي ظلّ هيمنة تركيبية ودلالية لا يتغيّر معنى الحديث الذي يُورده المتكلم على الرغم من حصول التبادل، فالإ نجاز قد يقبل مالا تُخرّجه الكفاءة ،وما هذا إلّا لكثرة الاستعمال ،يقول أبو بشر: ((فقد يشذّ الشيء من كلامهم عن نظائره ويستخفّون الشيء في موضع ولا يستخفّونه في غيره))[٢٠] .وقد عقد في مقدمة أبوابه السبعة باب ما يكون في اللفظ من الأعراض فيه تقرير واضح لنظرية الأصول اللغوية قال فيه: ((ويحذفون ويعوّضون ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يُستعمل حتى يصير ساقطاً، وسترى ذلك إنْ شاء الله))[٢١]؛ فالرغبة والنيّة عند المتكلم تفضي إلى التحقق

والإمكانية في صياغة المعاني فتكون تلك المعاني مكتملة في ذهن المخاطب على الرغم من انتفاء استعمال الأصل في تلك الصياغة وهي مسألة تقوم على وجود وعي لغوي لمنهجية محددة.

إنّ الخطوة التي نسعى أنْ نخطوها في هذا البحث ترتكز على (المعجم والنحو) في ظلّ الطرح البنيوي القائم على تصنيف المعطيات اللغوية ،وفي ظلّ اجراء منهجي لعرض ظاهرة التبادل على وفق تصوّرنا لتصّور سيبويه فإنّنا سنتناولها من جانبين:

الأول: مفاهيم مادية(مستوى معجمي) ويمثله محور الاختيار.

والآخر: مفاهيم علائقية (مستوى نحوي) ويقوم على محور التوزيع ويقع فيه بناء علاقات بين الكلمات فالواقع المرجعي فيه واحد لكنّ التنويع يكون على مستوى صيغة التعبير ،وتلك قدرة تعلن عن حكمة العربية التي تُمكّن متكلمها من تركيب الواقع تركيباً متنوعاً على وفق نماذج صورية.

إنّ محوري الاختيار والتوزيع يقومان أساساً على العلاقات النحوية من جهة أنّ اختيار اللفظ من دون غيره إنّما يتأتّى لمناسبة الكلمة للكلمة عند تركيبها ومن هنا تنتفي عن الاختيار كلّ اعتباطية [٢٢]؛لأنّ الكلام قبل تجلّيه ((يمرّ في الفكر بأحوال هي القصد إلى الكلام أو الإرادة له أو العزم عليه أو العلم به أو التفكير في كيفية ترتيبه))[٢٣]. ومن هنا فإنّ ظاهرة التبادل تقوم على وعي بأنّ للعلاقات النحوية بعداً في مداها يعكسه الاختيار بإبدال العناصر في التركيب، وعندئذٍ يتحوّل فعل التأويل إلى فعل اكتشاف يستدعي الأثر، وعلى وفق هذا الفهم يكون النحو مجموعة من قواعد التركيب التي تأتي تالية للوصف المعجمي- الدلالي.

المبحث الثاني

المفاهيم المادية (المستوى المعجمي في إيثار التبادل)

ترتكز هذه المفاهيم على أنْ تحمل المكونات المتبادلة عناصر تكوينية تكوّن السمات المعجمية [٢٤]. ومن مواردها في الكتاب:

١- (علمت) بمعنى (عرفت): خصّ سيبويه بعض الأفعال بشيء من التفسير عبر دلالتها منها (علمت) قائلاً عنه:((**وقد يكون علمتُ بمنزلة عرفتُ**))[٢٥] .واضعاً لهذه الدلالة ضابطاً مفيداً وذلك إذا كنت ((لا تريد إلّا علم الأول فمن ذلك قوله تعالى: **(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)** وقال سبحانه:**(وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)** فهي ههنا بمنزلة عرفت))[٢٦]. وقد شرح السيرافي كلامه بقوله: ((علمت إذا أردت به معرفة ذات الاسم ولم تكن عارفاً به من قبل كقولك : علمت زيداً. أي: عرفته ولم أكن أعرفه من قبل وليس بمنزلة قولك: (علمت زيداً قائماً) إذا أخبرت عن معرفتك بقيامه وكنت عارفاً من قبل))[٢٧] . فالفعل (علم) يمتلك دلالة غير قلبية وهي (عرف) وهي دلالة تُمكّن من إبداله من دون تغيير المعنى وهي خصوصية دلالية أكّدها سيبويه لهذه المفردات الفعلية عبر الاستعمال.

٢- إبدال معنى المصدر بمعنى اسم المفعول، أواسم الفاعل((**وذلك قولك: لبن حلب. إنّما تريد محلوب ، وكقولهم: الخَلق. إنّما يريدون المخلوق** [٢٨]**. ويقولون للدرهم: ضربُ الأمير. إنّما يريدون مضروب الأمير، ويقع على الفاعل وذلك قولك: يومٌ غمّ ورجلٌ نومٌ، إنّما تريد النائم والغام**))[٢٩].

فسيبويه ههنا يفسّر اللغة باللغة، ويستجيز في ضوء هذه الحقيقة أنْ يُخبر عن اسم العين بالمصدر بمعنى اسم الفاعل، وذلك في ((**قول الخنساء** [٣٠]:

ترتع ما رتعتْ حتى إذا ادّكرتْ فإنّما هي إقبالٌ وادبارُ

فجعلها الإقبال والإدبار، فجاز على سعة الكلام كقولك: نهارك صائم وليلك قائم))[٣١].

وقد عقد باباً سمّاه ((**باب ما ينتصب من المصادر؛ لأنّه حال وقع فيه الأمر، وذلك قولك: قتلته صبراً، ولقيته فجاءة ومفاجأة وكفاحاً ومكافحة٠٠٠وليس كلّ مصدر وإنْ كان في القياس مثل ما مضى من هذا الباب يوضع هذا الموضع؛ لأنّ المصدر ههنا في موضع إذا كان حالاً**))[٣٢]؛ فمذهب سيبويه أنّ المصدر ههنا في موضع حال بإبدال معنى المصدر باسم الفاعل، أي :لقيته مفاجئاً ومكافحاً ومعايناً. وتأتي صرامة القوانين ههنا بأنّ ذلك لا يحسن في كلّ مصدر وإنْ جاء على القياس ؛لأنّه شيء وضع في موضع غيره لقيمة تواصلية، إذ يقول: ((**ألا ترى أنّه لا يحسن أتانا سُرعة ولا أتانا رُجلة ،كما أنّه ليس كلّ مصدر يستعمل في باب سقياً وحمداً**))[٣٣].

فكما أنّ (سقياً) لا يطّرد فيه القياس فيقال (طعاماً وشراباً) كذلك الحال مع (أتانا سرعة).

٣- إبدال معنى اسم الفاعل بمعنى المصدر: و يذكر سيبويه قول:((**الفرزدق**:

على حلفةٍ لا اشتم الدهر مُسلماً ولا خارجاً من فيَّ زور كلام [٣٤]

فإنّما أراد : ولا يخرج فيما استقبل، كأنّه قال: ولا يخرج خروجاً))[٣٥]. فالمعنى: لا يخرج زور كلام خروجاً، ولأنّه حُمِل على إبدال معنى المصدر باسم الفاعل نُصب لوقوعه موقع المصدر النائب عن فعله ، فالمقولات المكونة للتركيب حملت سعة على صعيد اللفظ لعلاقات رابطة بين تلك المقولات اقتضاها التناسب بين الجمل المتحققة والمقام بما عكسه هذا الترابط من تبادل للمنظومة اللغوية بما يُدرك عقلاً كلّ ذلك تفاعلَ في أطار مبدأ التعاون بين الأفراد.

٤– التبادل بين معنى عسى ولعلّ: تأتي (لعلّ) للخوف والرجاء يقول سيبويه: ((وإذا قلت : **لعلّ فأنت ترجوه، أو تخافه في حال ذهاب**))[٣٦] ؛ إلّا أنّها قد ترد بمعنى (عسى) إذ يقول: ((**ولعلّ وعسى طمع واشفاق**))[٣٧]. وقد تمّت صياغة العملية البنائية لهذين المكونين من قبل المتكلم من جهة الدلالة وبإدراك من قبل المخاطب فكانت البنيتان موضحتين المعنى نفسه بإبدال أحدهما محلّ الأخرى وبذكرِ سيبويه قول

((**عمران بن حطان** [٣٨]**:**

ولي نفسٌ أقول لها إذا ما تُنازعني لعلّي أو عساني

٠٠٠جعلوها بمنزلة لعلّ في هذا الموضع))[٣٩] .

لعلّنا ندرك عبره هذه الرؤية في أنّ سيبويه وضع في اعتباره للتبادل بين هذين المكونين الدلالة المشتركة، تلك الدلالة التي قادت إلى اتصال ضمير النصب بـ (عسى) شأنها في هذا شأن (لعلّ) بما يؤكّد التوجه نحو المعنى المدرك، فـ(يا) المتكلم اسم (عسى) وخبرها محذوف فهي فعل كما يرى سيبويه ،وليست حرفاً، ودليله على ذلك أنّها لو كانت مجرورة لقال (عساي) فالتبادل بين (لعلّ) و(عسى) قاد إلى رجاحة هذا الرأي ؛لأنّهم جعلوها بمنزلة (لعلّ) في هذا الموضع [٤٠]. والملاحظة التي يجب التنويه إليها أنّنا نُريد أنْ تسلم تصورات سيبويه الخاصة بهذه المواضع من الانحراف إلى التضمين، فالتضمين بيّنه ابن هشام بقوله : ((قد يشربون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه))[٤١]. وفائدته ((أنْ يدلّ بكلمة واحدة على معنى كلمتين يدلّك على ذلك أسماء الشرط والاستفهام))[٤٢] . أنّنا ندفع أنْ يكون ذلك في ما قُدّم ذكره؛ لأنّ المكونين يؤدّيان معنى واحداً مقصوداً قصداً وتبعاً فالتبادل ههنا عكس التضمين من جهة أنّ التضمين لفظ يدلّ على معنيين والتبادل لفظين يدلان على معنى واحد.

لقد عوّل سيبويه على المعنى ههنا ،فهو المحك في الحكم على ما يجوز وما لا يجوز، يقول د. نهاد الموسى ((ويعوّل النحويون العرب على المعنى معوّلاً كبيراً، ويمثّل التفاتهم إلى المعنى عامة والمستوى الدلالي خاصة ملحظاً ثابتاً يفزعون إليه ويصدرون عنه من التفسير النحوي وخاصة إذا تخلّف التفسير عن المستوى النحوي الخالص))[٤٣].

وإخال إنّ هذه العلاقة التبادلية الدلالية وإنْ خرقت الأداء المثالي إلّا أنّها ظلّت في محور الملاءمة ؛لأنّها تفسير اللغة باللغة الأمر الذي جعل سيبويه يتخذها مصدراً من مصادر التأويل؛ لأنّ المدخلات الأولية للمنظومة النحوية كلمات.

المبحث الثالث

المفاهيم العلائقية (المستوى النحوي)

يعدّ الاستبدال معياراً جوهرياً يستعين به الدرس اللساني في دراسة اللغة؛ إذ تمنح هذه الظاهرة التراكيب مرونة وحركة ، فاللغة العربية بقدر اهتمامها بالألفاظ فإنّها تجعل الأهمية الكبرى للمعاني ، ولهذا نجد سيبويه ركّز على المعنى كثيراً في كتابه وأنحى باللائمة على النحويين حينما قدّم نصاً مهماً أبان فيه عنايتهم بالأمور الشكلية واكتفائهم بإعراب الكلم وبيان مواقعها ،ولم يكن همّهم أنْ يفهموها فهماً دلالياً وتفسير تركيبها بملاحظة الظروف والملابسات المقامية المفترضة التي تحيط بتكوين الجمل. الأمر الذي اهتم به سيبويه وبانت ريادته فيه إذ يقول: ((**فإنّ النحويين ممن يتهاونون بالخُلف إذا عرفوا الإعراب ،وذلك أنّ رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أنْ يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمرٍ، فقال: أنا عبدُ الله منطلقاً وهو زيدٌ منطلقاً. كان محالاً؛ لأنّه إنّما أراد أنْ يُخبرك بالانطلاق، ولَم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية؛ لأنّ هو وأنا علامتان للمضمر ،وإنّما يضمر إذا عَلِم أنّك عرفت مَن يعني، إلّا أنّ رجلاً لو كان خلف حائط أو في موضع تجهله فيه فقلت: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك كان حسناً**))[٤٤].

ففي النص من الأهمية ما يرجى لبيان أنّ العلامة الإعرابية قد لا تمدّنا بذلك العمق في تحليل الظاهرة النحوية ،فكانت جملة (أنا عبدُ الله) غير صحيحة في نص سيبويه في أعلاه ،إذ لا فائدة من أنْ تُخبر المخاطب الذي يعرفك بكونك (عبد الله)؛ أمّا لو كنت خلف حائط أوفي موضع يجهله المتكلم لأُستجيز ذلك على وفق منهجية سيبويه في المحتوى الدلالي للجملة [٤٥].

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى الملقب بـ (ثعلب) أنّ سيبويه ((عمل كلام العرب على المعاني))[٤٦] ولا يخفى ههنا أثر استاذه الخليل حينما((سُئل عن العلل التي يعتلّ بها في النحو فقيل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟.فقال: إنّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفتْ مواضع كلامها وقام في عقولها علله وإنْ لم ينقل ذلك عنهم، واعتللت أنا بما عندي أنّه علة لما عللته منه، فإنْ أكن أصبت فهو الذي التمست، وإنْ تكن هناك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والاقسام وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق، أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة فكلّما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنّما فعل هذا هكذا لعلّة كذا كذا، ولسبب كذا كذا سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك فجاز أنْ يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة. إلّا إنّ ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أنْ يكون علة لذلك فإنْ سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعول فليأتِ بها))[٤٧].

وبهذا يخطّ سيبويه للنحو العربي رؤية جديدة في فهم الجملة تمثلت في طائفة من نصوص كتابه تتمّ دراسة ظاهرة التبادل عبرها على وفق ما يمكن أنْ تحيل عليه من اعتبارات وظيفية - وهي اعتبارات المكان والزمان وطرفي عملية التخاطب المتكلم والمخاطب- تمثّلت تلك النصوص [٤٨] في:

أولاً: التبادل الوظيفي

عقد سيبويه باباً قال فيه ((**هذا باب ما يكون فيه المصدر حيناً لسعة الكلام والاختصار وذلك قولك: متى سير عليه؟ فيقول: مقدم الحاج وخفوق النجم وخلافة فلان وصلاة العصر فإنّما هو زمن مقدم الحاج وحين خفوق النجم ؛ولكنّه على سعة الكلام والاختصار وإنْ قال: كم**

سير عليه فكذلك))[٤٩]. ويفهم من نصه أنْ تقوم كلمة ما بوظيفتين معاً الأولى هي وظيفتها الأساسية والثانية مُبدَّلة فالذي حصل كان بفعل تبديل مقولة اسمية إلى مقولة ظرفية، فقد أدى الحذف إلى أنْ يقوم المصدر مقام ظرف الزمان ومن ثمّ قيامه بوظيفتي الظرف أولاً، والفاعلية ثانياً وهو أمر غير اعتيادي استدعى محاولة تفسيرية في ضوء السياق الفعلي الذي قيلت فيه الجملة فيلجأ سيبويه إلى الإحالة إلى سؤال متقدّم خاص بالحين وقد سقط السؤال فقام الحين مقام الظرف في مسلك لغوي اصطلح عليه بـ(سعة الكلام) ليعبر عن مثل هذه الحالة .

وبالطريقة نفسها يُفهمنا سيبويه كيف يقوم المصدر مقام المسند إلى الفعل في قوله:((**من ذلك قولك على قول السائل :أيّ سَيرٍ سِيرَ عليه؟. فتقول :سيرَ عليه سيرٌ شديد وضُرِبَ به ضربٌ ضعيفٌ فأجريته مفعولاً والفعل له))**[٥٠] .

فالمصدر قام بوظيفة المسند إلى الفعل عبر بناء الفعل على المفعول مع تحمّله لمعنى الفاعلية أي الفعل له ، وهي الحال في جميع الجمل التي يُبنى فيها الفعل للمفعول، فالمفعول يكون مرفوعاً عند البناء للمجهول إذ يقول سيبويه عن المفعول المرفوع (نائب الفاعل) : ((**هذا باب الفاعل الذي لم يتعدّه فعله إلى مفعول والمفعول الذي لم يتعدّ إليه فعل فاعل ولم يتعدّه فعله إلى مفعول آخر والفاعل والمفعول في هذا سواء يرتفع المفعول كما يرتفع الفاعل؛ لأنّك لم تشغل الفعل بغيره وفرّغته له كما فعلت ذلك بالفاعل... كقولك: ضُرِب زيدٌ ويُضرب عمرو**))[٥١]. ومن ثمّة فقد كشف سيبويه عن المحتوى الدلالي للجملة في مجيء المفعول ههنا مصدراً عبر إمكانية دلالية هي وقوعها جواباً لسؤال متقدّم [٥٢].

ثانياً: التبادل الشكلي

تفطن سيبويه إلى كيفية التركيب من جهة المعنى بتحكّم المتكلم ،فثمّة مؤثرات مقامية للجملة تؤول إلى أنْ تفقد العلامة الإعرابية قيمتها في مثل(هذا جحرُ ضبٍّ خربٍ) فالعلامة الإعرابية لـ(خرب) هي الضمة ،إلّا أنّها أبدِلَتْ بالكسرة ،وتجاوز تخوم الإعراب المعياري في إطار المظاهر الاستعمالية يعلّله ههنا سيبويه بقوله إنّ الوجه فيه: ((**الرفع وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم وهو القياس ؛لأنّ الخرب نعت الجحر والجحر رفع ؛ولكنّ بعض العرب يجرّه وليس بنعت للضب ؛ ولكنّه نعت للذي أضيف إلى الضبّ فجرّوه ؛لأنّه نكرة كالضب ،ولأنّه في موضع يقع فيه نعت الضب، ولأنّه صار هو والضبّ بمنزلة اسم واحد**))[٥٣].

فالقصدية تمسك بزمام الاختيار إذ تقرّر أنّه ((**ليس ينقض اجراؤه عليك المعنى**))[٥٤]. فمفهوم الملاءمة في الحركات نفسها حدّد سياق التأويل وكيف يتكوّن التأويل في هذا السياق، فالعمل ههنا -عمل العناصر اللغوية بعضها ببعض – لا على وجه الحقيقة بل على وجه العلاقات المطردة الثابتة أعان على تفسير هذه الظاهرة في إطار التبادل الشكلي في الحركات الإعرابية ما دام صاحب اللغة قادراً على إحداث التوازن بين الموقع الذي يشغله العنصر اللغوي والوظيفة التركيبية والدلالية ،وهو رابط لزومي عند سيبويه يقود إلى علاقة مُنتجة [٥٥].

ثالثاً: التبادل المضارعي [٥٦] **.**

استعان سيبويه في بناء نصوصه بوسائل وآليات انتاجية ،عملت على توليد المعرفة، منها آلية (الاستدلال)في محاولة اثبات حقائق لغوية لمتلقيه ضمن إطار قالب منهجي يخضع لبناء محكم، بغية فهم واستيعاب مضامين نصوصه بإقامة الدليل الذي يعتمد على العملية الاستدلالية التي تتصف بالإنبنائية ،حينما يؤالف سيبويه بين نمط الكلام وجوهره .وهو بهذا يجعلنا إزاء شكل خاص لبنيات نصوصه، حينما يقدّم لنا مختلف المعلومات التي تحدّد العلاقات الاستدلالية بين تراكيبه ((**كعلاقة الشرط والسببية والاستلزام والاستنتاج والقياس وغيرها**))[٥٧]. وهو ما يشي إلى القول بأنّ نصوصه جاءت مُدلِّلة ومعلِّلة ومنظّمة تحقق أغراضها، ومؤثرة في متلقيها إقناعاً باعتماد أدوات وضوابط عقلية، وأخرى نقلية. من أجل إقامة الحجة لإثبات قضايا لغوية وظاهرة التبادل وجب فيها أنْ يكون الاستدلال أحد الأنساق التي اعتمدها خطاب سيبويه الحجاجي حينما ينجز عبرها تسلسلات استنتاجية بعضها بمثابة الحجج وبعضها الآخر بمثابة النتائج، فقد ربط سيبويه بين العمل والمعنى في إبداله اسم الفاعل بالفعل حملاً عليه إذ يقول: **((هذا باب من اسم**

الفاعل الذي جرى مجرى الفعل المضارع في المفعول في المعنى فإذا أردت فيه من المعنى ما أردت في يفعل كان نكرة منوناً وذلك :هذا ضاربٌ زيداً غداً فمعناه وعمله مثل هذا يضرب زيداً غداً))[٥٨]. فاسم الفاعل النكرة المنون يتساوى مع الفعل المضارع في المعنى والعمل وتتضح آلية الاستدلال ههنا عبر المخطط الآتي في مثال سيبويه :

[هذا ضاربٌ زيداً غداً]

- إذا حدّثت عن فعل في حين وقوعه غير منقطع كان كذلك[شرط واستلزام]
- هذا ضاربٌ عبد الله الساعة فمعناه وعمله مثل هذا يضرب زيداً [تفسير]
- هذا يجري مجرى الفعل المضارع في العمل والمعنى منوناً [استنتاج]

ويبيّن في موضع آخر اتفاق الصيغيتين في أداء المعنى الوظيفي والدلالي بقوله:((**وإنّما ضارعت اسماء الفاعلين أنّك تقول: إنّ عبدَالله ليفعل فيوافق قولك: لفاعل، حتى كأنّك قلت: إنّ زيداً لفاعل فيما تريد من المعنى**))[٥٩] .

- هذا ضاربٌ عبدَالله الساعة = إنّ زيـــــداً لفاعل
- هذا يضرب عبدَالله الساعة = إنّ زيـــــداً ليفعل

إنّ اعتماد سيبويه تقنيات استدلالية إنّما هدفه الإقناع لإحداث تغيرات في الأفكار أو توجيهها أو لتحقيق أغراض تداولية أخرى ويُبنى الإقناع عادة على اقتراحات سابقة بشأن عناصر السياق، ولاسيما المخاطب والخطابات السابقة والخطابات المتوقعة من أجل إدراك المقاصد الحقيقية فبعض القضايا النحوية قد لا يتمّ التعرّف إليها بصورة مباشرة تكمن وظيفة الاستدلال عندها بإثبات وجود هذه القضايا عبر ربطها ببعض القضايا الأخرى التي سبق ثبوتها باستعمال اسلوب مرن يُدرِك المتلقي عن طريقه أنّه أمام خطاب طبيعي وقد وعى سيبويه هذه الكيفية في عرض قضاياه النحوية والاستدلال عليها .

وقد سلك سيبويه مسلكاً استدلالياً آخر عكس لنا عبره إثبات ظاهرة التبادل في كلام العرب وهو (الاعتراض) فقد ألحق الصفة المشبهة بباب اسم الفاعل قائلاً:((**هذا باب الصفة المشبهة فيما عملت فيه ولم تقوَ أنْ تعمل عمل الفاعل**))[٦٠] .ويعترض على استبدالها بالفعل: ((**لأنّها ليست في معنى الفعل المضارع**))[٦١]. واعتراضه يستند فيه إلى الأدلة بقوله:((**والإضافة فيه أحسن وأكثر ؛لأنّه ليس كما جرى مجرى الفعل ولا في معناه فكان أحسن عندهم أنْ يتباعد منه في اللفظ كما أنّه ليس مثله في المعنى وفي قوّته في الأشياء**))[٦٢] .

إنّ استبدال اسم الفاعل بالفعل إنّما هو لتقارب في المعنى والعمل فإنْ اختفى هذا التقارب اختفت كذلك صورة وجود البديل، فالإضافة في الصفة المشبهة أحسن وأكثر وهي من خصائص الأسماء فهي أقرب إلى الاسمية منها إلى الفعلية فابتعدت عن الفعل في المعنى والعمل. فالمعنى ههنا يكون مسؤولاً عن تقديم النموذج المعين للمثال المحتمل كما أشرنا إلى ذلك مسبقاً يوضّح هذا الأمر السيرافي بقوله: ((إنّ قولك: حسن الوجه. لم يجرِ مجرى حسن كما جرى ضارب مجرى ضرب فكان الأحسن عندهم في حسن الإضافة لبعد الإضافة من الفعل في اللفظ كما تباعد حسن الوجه من الفعل ومما جرى مجراه في المعنى))[٦٣]. واعتراضه على استبدال الصفة المشبهة بالفعل يعلق عليه بقوله: ((**ومما لا يكون في الاستفهام إلّا رفعاً قولك: أعبُد الله أنت أكرم عليه أم زيدٌ ،وأعبدُ الله أنت أصدقُ أم بشرٌ. كأنّك قلت: أعبدُ الله أنت أخوه أم بشرٌ؛ لأنّ أفعل ليس بفعل ولا اسم يجري مجرى الفعل وإنّما هو بمنزلة حسن وشديد ونحو ذلك**))[٦٤] .

ولعلّ تنويهه هذا يكشف لنا سرّ إبدال الفعل باسم الفاعل وهو ما لا يقع مع الصفة المشبهة وما حُمِل عليها. وهذه الآلية التي اعتمدها سيبويه هي آلية استدلالية في مقابلةٍ بين هذه الأبنية فكانت نهجاً متميّزاً يُفسّر بها الأمثلة المتفقة في العمق من حيث إنّها تؤدّي معنى واحداً - كما في قوله:((**هذا باب صار الفاعل فيه بمنزلة الذي فعل في المعنى وما يعمل فيه ،وذلك قولك: هذا الضاربُ زيداً فصار في معنى هذا الذي ضرب زيداً وعمل عمله؛ لأنّ الألف واللام منعتا**

الإضافة وصارتا بمنزلة التنوين)).[٦٥]- فتصلح بديلة ،أو لا تؤدّيه كما هو الحال مع الصفة المشبهة ،فلا تقع بديلة عن الفعل.

فالبعد التأويلي عند أبي بشر إنّما جاء مرتبطاً بالبعد التوليدي فإنْ تولّد البديل الموافق في المعنى والعمل أخذ به وإلّا فهو معترض على مجيء غير المُولَّد لافتقاره شروط الملاءمة .

وقد عقد باباً للمصادر جرت مجرى الفعل المضارع في عمله ومعناه ((**وذلك قولك: عجبت من ضربِ زيداً .فمعناه :أنّه يضربُ زيداً .وتقول :عجبت من ضربِ زيداً بكرٌ ومن ضرب زيدٌ عمراً. إذا كان هو الفاعل ،كأنّه قال: عجبت من أنّه يضرب زيدٌ عمراً ويضرب عمراً زيدٌ**))[٦٦]. فالمصدر قد يُستبدل بالفعل في الجملة لما تحتمله بنيته الدلالية التي حلّلها سيبويه إلى (أنّه يضرب)، فالمعنى يجمع بين العنصر اللغوي والوظيفة النحوية التي يشغلها، فإحساس سيبويه الدقيق قاده إلى مقارنة المصدر باسم الفاعل قائلاً: ((**وإنّما خالف هذا الاسم الذي جرى مجرى الفعل المضارع في أنّ فيه فاعلاً ومفعولاً ؛لأنّك إذا قلت: هذا ضاربٌ. فقد جئتَ بالفاعل وذكرته، وإذا قلت: عجبت من ضرب، فإنّك لم تذكر الفاعل، فالمصدر ليس بالفاعل ،وإنْ كان فيه دليل على الفاعل ،فلذلك احتجت فيه إلى فاعل ومفعول ،ولم تحتج حين قلت: هذا ضاربٌ زيداً. إلى فاعل ظاهر ؛لأنّ المضمر في ضارب هو الفاعل**))[٦٧].

إنّ مدى العمق اللغوي السيبويهي في تحليل هذه المكونات يُبرز لنا كيف تشكّلت بنى نحوية مقبولة بالمحافظة على النظام النحوي للغة حيث لم يحدث تصادم بين العنصر اللغوي العامل والوظيفة التي يؤدّيها في إطار علاقات مع العناصر اللغوية الأخرى، ولا يخفى وضوح المعنى الذي يمكن أنْ يُعبّر عنه من خلال تراكيب تتكون من مفردات مختلفة، ففي قوله: ((**وإنْ كان فيه دليلٌ على الفاعل**)) إشارة إلى ما تحمله بنية المصدر الدلالية للفاعل ،أمّا البنية الدلالية لاسم الفاعل فهي مشتملة على الضمير. فوقوع التبادل ههنا لا يخلّ بالنص ،بل يأتي معه النص مترابطاً ومنسجماً؛ لأنّه ليس تجميعاً فوضوياً لكلمات في جمل بل يمكن القول بثنائية (الاتساق والانسجام) بين البدل والمبدل منه [٦٨]. فالاتساق من منظور قراءتنا لقراءة سيبويه متعلق بالترابط في العلاقات النحوية الموجودة في الجملة، أو بمعنى آخر أنّه مرتبط بالسياق الداخلي الذي يتجسّد عن طريق مفهوم النظير. أمّا الانسجام فهو مرتبط بالملاءمة فهو ليس ميزة لسانية للملفوظات إلّا أنّه نتيجة نشاط تأويلي .

إنّ البنية المفهومية لظاهرة التبادل تجعلنا نعرض نصوصاً أخرى لسيبويه في إطار نظرة كلية للتبادل المضارعي، إذْ يمتلك الفعل (تقول) سمات مشتركة تجعله يسلك في الجملة مسلكاً تركيبياً شبيهاً بالفعل (تظن) وذلك ((**قولك: متى تقول زيداً منطلقاً. وأ كلّ يوم تقول عمراً منطلقاً٠٠٠وزعم أبو الخطاب وسألته عنه غير مرة، أنّ ناساً من العرب يوثق بعربيتهم وهم بنو سليم يجعلون باب (قلت) أجمع مثل ظننتُ**))[٦٩] .واستشهد بقول الكميت:

أجهّالاً تقول بني لؤي ..... لعمرُ أبيك أم مُتجاهلينا [٧٠]

وقول عمر بن أبي ربيعة:

أمّا الرحيلُ فدون بعدِ غدٍ.....فمتى تقول الدار تجمعنا [٧١]

فبنية (قلت) يُظهرها سيبويه أنّها ((**وقعت في كلام العرب على أنْ يُحكى بها ،وإنّما تحكي بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً نحو قلتُ: زيدٌ منطلقٌ؛ لأنّه يحسن أنْ تقول: زيدٌ منطلقٌ ولا تُدخل قلت**))[٧٢]. إلّا أنّه يحدّد الخاصية التي أهلّتها لهذه المشابهة – بما يُمكّن من تبادلها مع الفعل تظن- وذلك إذا كان القول بعد الاستفهام للمخاطب نحو: أتقولُ زيداً منطلقاً؟. وهو فهمٌ معتمِدٌ على ثنائية نحوية ودلالية، من جهة اكتمال عناصر التركيب وتحقق المعنى المعجمي على وفق قيود الاختيار ،وبما يُفضي إلى توافق العلاقة بين العناصر والمعاني ،فنشأ تركيب قَبِلَهُ أبناء اللغة ؛لأنّه مسموحٌ به في النظام اللغوي العرفي .

وكأنّ سيبويه يُجمل لنا خضوع هذه البنية لوظائف نحوية تمدّ المنطوق بالمعنى لما بينها من علاقات أساسية هذا من جهة ومن جهة أخرى خضوع مفرداتها التي تشغل تلك الوظائف النحوية لعلاقات دلالية متفاعلة نتيجة سياق خاص ترد فيه تلك البنية وهو تصوّرٌ ليس افتراضياً بل مبنياً

على إبدال- ناسٍ من العرب يوثق بعربيتهم وهم بنو سليم – (ظننت)بـ(قلت). وتلك مرونة استعمالية خلّاقة في تجاوز استعمال نموذج أصل شائع الدلالة إلى غيره بما يُنبيء عن حكمة العربية [٧٣].

نتائج البحث:

تمخض البحث عن نتائج أجملها بـ:

١- تنبيء هذه الظاهرة عن وجود قدر من الاشتراك بين المكونين المتبادلين توفّرها حاجة المتكلم الاتصالية.

٢- ترتّب المفاهيم في هذه الظاهرة ترتيباً هرمياً قاعدته المفردات في مستواها المعجمي وقمّته المستوى الإنجازي مروراً بالمستوى النحوي وهذه الهيكلية الهندسية عكست مجال المعنى في صياغة التراكيب أكثر من انعكاسها في المفردات وهو أمر غاية في الأهمية ؛لأنّها ارتبطت بموقف المتحدّث.

٣- في ظلّ ظاهرة التبادل يمكن القول إنّ المكون الدلالي مكون شمولي بوصفه جزءًا من التركيب والبنية المعرفية.

٤– إنّ هناك قيوداً اجتماعية تُفرض على الكلام عن طريق تحديد مجموعة من المعايير يتمّ الالتزام بها، فضلاً عن القيود المفروضة على الوحدات اللغوية المعروفة عند أبناء اللغة الواحدة وهي مسألة بديهية ؛لأنّ الكلام يحدث في سياق اجتماعي فلا غنى ههنا عن المنظور الاجتماعي.

الهوامش:

[١] ترجع صحة الحكم على اللفظ إلى معرفة النظم والإعراب وصحة الحكم على المعنى إلى العقل والمنطق قال السيرافي في ردّه على متّى بن يونس:((**لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنا نتكلم بالعربية ؛ وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل إذا كنا نبحث بالعقل**)) الإمتاع والمؤانسة١٠٩/١.

[٢]الاقتراح في علم أصول النحو:ص٢. وينظر الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي: ص١١.

[٣] ينظر النحو الوظيفي وبناء الحاسوب:ص١١٨.

[٤] حاولت الدراسات اللسانية الحديثة تقديم هذا الفهم لكن بإعطائه صورة تختلف باختلاف الإتجاهات اللسانية فقد لجأ "هارفج" إلى إتخاذ هذه المسألة وسيلة مهمة لإنشاء رابطة بين الجمل فالمتلقي يسترشد بالمكون البديل إلى الدلالة نفسها إذ يدلّ كلا الشكلين اللغويين على الشيء غير اللغوي نفسه. ينظر النص والخطاب والاجراء:ص٣٠٠،ودراسة لغوية لصور التماسك النصي في لغتي الجاحظ والزيات:ص١٧٣، والاستبدال ودوره في التماسك النصي(بحث) ولسانيات النص: ص٣١.

[١] العين١٢٢/١.

[٦] الكتاب٣١١/١، وينظر موارد مشابهة١ /٣١٤- ٣١٥ – ٣٢١ -٣٢٢ -٣٣٩ -٣٤١ -٣٤٨ -٣٥٦ -٣٨١ -٣٨٣.

[٧] ذهب ابن جني إلى القول برأي سيبويه حينما أورد هذا المصطلح في كتابه الخصائص٢٨٨/١ قائلاً: ((لك أنْ تقول : ضرباً زيداً، لا على أنْ تجعل ضرباً توكيداً للفعل الناصب لـ"زيد" بل على أنْ تُبدله منه فتقيمه مقامه)).

[٨] الكتاب١٤٣/٢.

[٩] المنصف١٩٨/١. وذكر ابن قيم في بدائع الفوائد١٢٣/١. أنّ ((أكثر ألفاظ النحاة محمول على الاستعارة والتشبيه والتسامح إذ مقصودهم التقريب على المتعلمين)).

[١٠] الكتاب٣٤٠/١و٣٤٥/١و٨١/٢.

[١١] الكتاب٢٤٢/١-٢٤٣و٣٧٨/١.

[١٢] الكتاب٣٤٥/١ وينظر١/ ١٠٨و١٠٩ و١١٥ و١٧١و٣١٦و٣٢٧.

[١٣] مثّلت المنزلة عند سيبويه قانون الاستقراء اللغوي ممّا مهّد لظهور القياس المنطقي بعد ذلك وقد أحصينا مواردها في الكتاب فكانت نحواً من (١٧٩٧) مرة وقد اختفى استعمال هذه المفردة عند النحاة الخالفين إلّا في إشارتين الأولى عند ابن جني والأخرى عند ابن هشام ينظر بحثنا المنشور في مجلة الباحث بعنوان الحجاج بمفهوم المنزلة مقاربة تشييدية بين الغرض العلمي والتعليمي:ص٣،في العدد/٩.

[١٤] ديوان العجاج ص٦٦، وينظر الخزانة ٥١١/٤، وأمالي ابن الشجري٢٦٢/١، وشواهد المغني ص١٨٠؛ والقنّسري :الشيخ الكبير المسن.

[١١] الكتاب٣٣٨/١.

[١٦] الخصائص ٣٣٠/٣ والهمع٩/١ والتصريح١١١/٢ والأشموني١٨٠/١.

[١٧] الكتاب٢٤/٣.

[١٨] الكتاب٢٤/٣(الهامش).

[١٩] الكليات ص٣١.

[٢٠] الكتاب٢١٠/١.

[٢١] الكتاب٢٥/١.

[٢٢]جمالية العلاقات النحوية في النص الفني :ص١٤٦.

[٢٣] الجرجاني أمام القاضي عبد الجبار: ص١٥٦. وينظر الدرس النحوي في الخطاب اللساني المعاصر (بحث).

[٢٤] وصف جومسكي المعجم أنّه طائفة مفردات اللغة وتمتلك هذه المفردات نوعين من السمات المميزة الأولى (فنولوجية) والثانية من أنواع متعددة (سمات دلالية ونحوية٠٠٠الخ) وتعود مقبولية الجملة إلى انسجام مفرداتها مع تلك السمات. ينظر جوانب من نظرية النحو:ص١١٠ونظرية جومسكي :ص١٥٩ومباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة:ص١٣١.
[٢١] الكتاب١/٤٠وينظر المفردات للراغب:ص٥٨٠والدر المصون١/٤١٣.
[٢٦] الكتاب١/٤٠ والآيتان البقرة /٦٥ والأنفال/ ٦٠.
[٢٧] شرح كتاب سيبويه للسيرافي٢/٣١٧.
[٢٨] ذكر في موضع آخر ((قد يكون الخَلق المصدر، ويكون الخلق المخلوق)) .ينظرالكتاب٢/١٢٠.
[٢٩] الكتاب ١/٤٣.
[٣٠] ديوان الخنساء: ص٤٨ ومختارات ابن الشجري١/٧١.
[٣١] الكتاب١/٣٣٧.
[٣٢] الكتاب١/٣٧٠.
[٣٣] الكتاب١/٣٧١.
[٣٤]ديوان الفرزدق :ص٧٦٩، والكامل:ص٦٩.
[٣٥]الكتاب١/٣٤٦.
[٣٦] الكتاب٢/١٤٨.
[٣٧] الكتاب٤/٢٣٣.
[٣٨] الخصائص٣/٢٥وشرح المفصل٣/١٨٨.
[٣٩] الكتاب٢/٣٧٥.
[٤٠] الكتاب٢/٣٧٥.
[٤١] مغني اللبيب ٢/٦٨٥.
[٤٢] مغني اللبيب٢/٥٣٠.
[٤٣] نظرية النحو العربي:ص٦٥وعناصر النظرية النحوية:ص١٧٣.
[٤٤] الكتاب٢/٨٠-٨١.
[٤١] يُقصد بالمحتوى الدلالي للجملة" أنّ الجملة يتمّ فهمها في ضوء إطار من الدلالات الخارجية غير اللغوية وتكون الجملة هي الوسيلة الوحيدة التي تمدّنا بما نحتاجه لفهمها في بيئتها الخارجية أو اللغوية" ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه"ص١٩٥.
[٤٦] طبقات النحويين واللغويين:ص١١١.
[٤٧] الايضاح في علل النحو:ص٦٥-٦٦.
[٤٨] ننوّه أنّ اختيارنا للنصوص قائم على الانتقاء، أما استقراؤها كاملاً في كتاب سيبويه فهو ما طرحناه لأنْ يكون أطروحة دكتوراه يتمّ تناول هذه الظاهرة فيها عبر المستويات اللغوية صوتاً وصرفاً ونحواً ودلالة.
[٤٩] الكتاب١/٢٢٢-٢٢٣.
[١٠] الكتاب١/٢٢٩.
[٥١] الكتاب١/٣٣-٣٤.
[١٢] أطلق د. حسن عبد الغني الأسدي على هذه الظاهرة (**الازدواج الوظيفي**) مؤكّداً ملاحظة الأثر الوظيفي الذي يقوم به المتكلم والمخاطب فالمتكلم يتخذ وظيفة المجيب ويكون للمخاطب وظيفة السائل ويرى أنّ المحتوى الدلالي يمكن أن يُوجّه الوظائف الخطابية على نحو من الدقة .ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه: ص٢٠٣.
[١٣] الكتاب ١/٤٣٦.
[١٤] الكتاب١/٦٧.
[١٥] نوّهنا سلفاً أنّ اختيارنا لنصوص الكتاب انتقائية ونودّ الإشارة ههنا إلى موارد أخرى تخضع للتبادل الشكلي خشية الإطالة في تفصيلها نذكر منها:
أ-الرفع في خبر المبتدأ يُبدّل إلى نصب في خبر كان وكاد وأخواتها والمفعول الثاني لأفعال القلوب وتبقى النسبة ثابتة بين المبتدأ والخبر فلا يتغير معنى الخبرية فيه.
ب-رفع المبتدأ يبدّل إلى نصب في اسم (إنّ) وأخواتها ولا النافية للجنس والمفعول الأول لأفعال القلوب.
ت-الخبر المنصوب مع (ليس) و(كان) المنفية وما العاملة عمل ليس يبدّل إلى خبر مجرور. ينظر الكتاب١/٥٧-٥٩-٦٠-٦١
[١٦] اعني بها المضارعة في المعنى والعمل.
[١٧] آليات الاستدلال الحجاجي: ص٢.
[١٨] الكتاب١/١٦٤.
[٥٩] الكتاب١/١٤.
[٦٠] الكتاب١/١٩٤.
[٦١] الكتاب١/١٩٤.
[٦٢] الكتاب١/١٩٤.
[٦٣] الكتاب١/١٩٤(الهامش).
[٦٤]الكتاب١/١٣٢.
[٦٥]الكتاب١/١٨١.
[٦٦]الكتاب١/١٨٩.جدير بالتنويه ههنا أنّ هذه الإمكانية التبادلية بين المصدر والفعل جعلت سيبويه يستعمل الفعل مراداً به المصدر وذلك في قوله: ((**وأنْ تفعل بمنزلة الفعل**)) الكتاب٣/٦. يُريد أنّ (أنْ) والفعل (تفعل) يؤولان بمصدر فهما بمنزلة الفعل أي المصدر يؤنس بذلك قوله:((ائتني بعدما تفرغ فـ(ما) و تفرغ بمنزلة الفراغ)) الكتاب٣/١١. وفي هذا ما يُعضّد مجيء المصدر بديلاً عن الفعل لتوافق في المعنى والعمل.
[٦٧] الكتاب١/١٨٩.
[٦٨] لا نقصد بمفهوم البدل ههنا المفهوم النحوي بوصفه تابعاً بل نعني به إحلال شيء مكان آخر.
[٦٩] الكتاب١/١٢٣-١٢٤.

[٧٠] الخزانة٤/٢٣، والعيني٢/٤٢٩.
[٧١] ديوان عمر:ص٣٩٤.
[٧٢] الكتاب١/١٢٢.
[٧٣] وتبدو هذه الظاهرة واضحة المعالم في موارد أخرى منها على سبيل المثال لا الحصر في ما أجري مجرى ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز مثل(ما) ينظر الكتاب ١/٥٧-٥٩-٦٠-٦١.

ثبت المظان:

١) القرآن الكريم.
٢) الاستبدال ودوره في التماسك النصي- مقال الكتروني على منتديات تخاطب- ابراهيم محمد عبد الله مفتاح.
٣) الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي –فؤاد بو علي-عالم الكتب-أربد –الأردن-ط١-٢٠١١م.
٤) الاقتراح في علم أصول النحو-السيوطي(ت٩١١هـ)- ضبط وتصحيح: أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد قاسم-جروس- برس البيضاء-ط١-١٩٨٨م.
٥) أمالي ابن الشجري-هبة الله بن علي بن محمد حمزة الحسيني العلوي-تحقيق: د.محمود محمد الطناحي- مكتبة الخانجي – القاهرة.
٦) الامتاع والمؤانسة-أبو حيان التوحيدي-مكتبة مشكاة الاسلامية.
٧) آليات الاستدلال الحجاجي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء-حازم القرطاجني- خديجة كلاتمة- مجلة المخبر-العدد(٨)-جامعة محمد خيضربسكرة-٢٠١٢م.
٨) الإيضاح في علل النحو-أبو القاسم الزجاجي(-٣٣٧هـ)-تحقيق:د.مازن المبارك- دار النفائس-مؤسسة مطابع معتوق-بيروت-ط٢-١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
٩) بدائع الفوائد-ابن القيم –دار الكتاب العربي-بيروت –لبنان (د.ت).
١٠) التصريح بمضمون التوضيح-الشيخ خالد الأزهري-الأزهرية-١٣٤٤هـ.
١١) الجرجاني أمام القاضي عبد الجبار-د.سلوى النجار-مطبعة التسفير الفني-صفاقس-٢٠٠٤م.
١٢) جماليات العلاقات النحو في النص الفني-د. سلوى النجار-التنوير للطباعة والنشر-بيروت-لبنان.
١٣) الحجاج بمفهوم المنزلةعند سيبويه(مقاربة تشييدية بين الغرض العلمي والتعليمي)-**د.رجاء الحسناوي - مجلة الباحث-العدد(٩)-٢٠١٣م.**
١٤) خزانة الأدب البغدادي –بولاق-١٢٩٩م.
١٥) الخصائص-أبو الفتح عثمان بن جني-تحقيق:محمد علي النجار-دار الهدى للطباعة والنشر-بيروت-ط٢-١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
١٦) دراسة لغوية لصور التماسك النصي في لغتي الجاحظ والزيات –صلاح قطب-دار العلوم-١٩٩٦م.
١٧) الدر المصون –السمين الحلبي-تحقيق:أحمد محمد الخراط- دمشق- ط١-١٩٨٦م.
١٨) الدرس النحوي في الخطاب اللساني المعاصر-فؤاد بو علي –مقال الكتروني على موقع ملتقى الأدباء والمبدعين العرب.
١٩) ديوان الخنساء – دار صادر –بيروت ١٣٨٣هـ.
٢٠) ديوان العجاج –تحقيق:عزة محمد حسن –دار الشرق- بيروت١٩٧١م.
٢١) ديوان عمربن أبي ربيعة –تحقيق:محمد محيي الدين-مطبعة السعادة-١٣٧١هـ.
٢٢) ديوان الفرزدق –نشر الصاوي-١٣٥٤هـ.
٢٣) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك-تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد-دار الكتاب العربي – بيروت-ط١-١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
٢٤) شرح شواهد شروح الألفية-العيني-بهامش الخزانة-بولاق-١٢٩٩م.
٢٥) شرح شواهد المغني –البغدادي-تحقيق:عبد العزيز رباح-دمشق-١٣٩٣م.
٢٦) شرح المفصل-ابن يعيش(-٦٤٣هـ)-عالم الكتب-بيروت-(د.ت).
٢٧) طبقات النحويين واللغويين-أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي(-٣٧٩هـ)-تحقيق:محمدأبو الفضل ابراهيم-دار المعارف-مصر-(د.ت).
٢٨) عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه- د.سعيد حسن بحيري-مكتبة الانجلو المصرية-ط١-١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
٢٩) الكامل-المبرّد(-٢٨٥هـ)-تحقيق:وليم رايت-ليبسك وكمبردج-١٨٩٢م.
٣٠) كتاب سيبويه- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(١٨٠هـ)- تحقيق: عبد السلام محمد هارون-مكتبة الخانجي القاهرة-ط٣-١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٣١) كتاب العين مرتباًعلى حروف المعجم – تصنيف الخليل بن أحمدالفراهيدي (١٧٠هـ)...
تحقيق:عبد الحميد هنداوي-منشورات دار الكتب العلمية بيروت-لبنان-ط١-٢٠٠٣م.
٣٢) مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة –د.ميشال زكريا-المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع-ط١-١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٣٣) مختارات ابن الشجري-هبة الله ابن الشجري(-٥٤٢هـ)-دار المعرفة للطباعة والنشر-بيروت-(د.ت).
٣٤) مغني اللبيب عن كتب الاعاريب-ابن هشام الأنصاري(-٧٦١هـ)- تحقيق:د.مازن المبارك ومحمد علي –دار الفكر-بيروت-ط٦-١٩٨٥م.
٣٥) مفردات ألفاظ القرآن- الراغب الاصفهاني(-٥٠٢هـ)-تحقيق:صفوان عدنان داودي-دار القلم-دمشق-ط١-١٩٩٦م.
٣٦) مفهوم الجملة عند سيبويه-د.حسن عبد الغني الأسدي-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط١-٢٠٠٧م.
٣٧) المنصف-ابن جني-تحقيق:ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين-شركة مكتبة ومطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده-مصر-ط١-١٩٤٥م.
٣٨) النحو الوظيفيي وبناء الحاسوب –عزالدين البوشيخي-مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية –العدد(١١)-مكناس-١٩٩٥م.
٣٩) النص والخطاب والاجراء –دي بو جراند-ترجمة تمام حسان-عال الكتب –القاهرة-١٩٨٨م.
٤٠) - نظرية جومسكي اللغوية-جون لوينز-تحقيق: د.حلمي خليل-دار المعرفة الجامعية-ط١-١٩٨٥م.
٤١) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع-جلال الدين السيوطي(-٩١١هـ)-تحقيق: عبد السلام محمد هارون وعبد العال سالم مكرم-دار البحوث العلمية-الكويت-١٣٩٤هـ-١٩٧٥م.